حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا

للدكتور أحمد سعيدان

لا غرو ان دعوات كثيرة قد انطلقت، وما تزال تنطلق ، من افراد وهيئات ومؤتمرات ، تدعو الى تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، وان هنالك افرادًا وجماعات يَضيقون ذرعا بهذه الدعوات، فيعارضونها ويطرحون في المعارضة حججا وآراء جديرة بالتأمل والتفكير . وانَّ دعوات الداعين ونواهي الناهين تصطبغ احيانا بصبغة انشائية خطابية او عاطفية انفعالية تنأى بها عن رزانة القرار الحكيم المسؤول؛ وهي تكادُ دائما تَصدُر من منطلقات متعددة متباينة : فهي تارةً قومية وطنيّة ، وتارةً فقهيةً لغوية ، وهي احيانا تاريخيّةً او اجتماعيةً ، وكثيرا ما تتعارض او تتشابك او تتناقض، حتى لتكاد تضيع الحُجّة، وتحتجب الشجرة بأغصانها ، كما يقولون .

واني لأهمّ ان اقول إنني عازم على ان انحو في عرض القضية منحى موضوعيًا، اولا اني اجد في من تَعرّضوا للقضية مَن يُستهلّون البحث بزعم كهذا، ثم هم يُغرقون السامع او القارىء في متاهاتٍ من مغالطاتٍ ومتناقضات، كفريق يضرب على غير هدى، او يدور في دوّامة .

وكيلا اضربَ على غير هدى او ادور في دوّامة ساجنح الى النّهج العلميّ، فأحاول تحليل الموضوع الى عناصر متميزة بعضها عن بعض ، ثم القي نظرة على هذه العناصر متفرّقة ، لأخلص من ذلك الى موازنة عامّة، فيها حساب الربح والخسارة، وكشف الحساب، وفيها خطّة واقتراح وبناء .

ولو كان ما نجابه عبارةً جَبْرية او مُركّباً كيماويّاً لوجدنا على الغالب نَهْجاً تقليديًّا لتحليله الى عناصر متميّزة ؛ ولكننا نُجابهُ قضيّةً تعيش معنا وتنطوي على واقع ماثل امامنا،يقوم على جذور ضاربة في اعماق تاريخنا،ويمتدّ الى كثير من خُطَطنا وتطلّعاتنا . فليس ثمّة على ما اعلم،نَهْجٌ لتحليله الى عناصر سوى إنعام النظر فيه من زوايا مختلفة محدّدة .

الزاوية التربوية :

وأُولى الزوايا المحدَّدة التي مِنها أَنظرُ في الأمر هي الزاوية التربوية،التي قَلَّما أَولاها مَن تعرَّضوا للأمر ما ينبغي من عناية واهتمام .

إنَّ عملية التعليم عمليةٌ تربوية ؛ فطبيعيٌّ ان ننظر في تعريب التعليم من الزاوية التربوية المحضة.وتعريبُ التعليم يعني عندنا في الأُردن تعريب التعليم الجامعيّ،ويَنْصَبُّ على التعليم في الكُلّيّات العلمية، وهذا ما أَحصُر البحثَ هُنا فيه،وإنْ كنتُ اعلم انَّ التعليم غيرَ الجامعيّ يَفتقر في اقطارٍ اخرى عربيّةٍ الى التعريب . وفي مستَهَلّ حديثنا عن تعريب التعليم في الكُلّيّات العلميّة طبيعيّ ان نَستذكِر ماذا نبغي من التعليم في هذه الكليات .

إنَّ إعطاء الطالب معارفَ وخبراتٍ تُمكِّنُه من اجتياز امتحاناتٍ معيَّنة،ومن ممارسةِ مهنةٍ محدَّدة يؤهِّله تخصُّصُه لها،ليس وحده الهدف من التعليم الجامعي؛اذ لَعَلَّ ما في كُتبٍ محدودة قليلة العدد ما هو اكثر واوفى مِمّا يُعطي المحاضرون في الجامعة ؛ ولعلَّ في خبرةٍ هندسيَّةٍ يأخذها الطالب من بناء،او خبرة حسابيّة يفيدها من مصرف، ما يربو على الخبرة المقنَّنَة التي تُعطيها الأعمال المخبرية الجامعيّة في اوضاع افتراضيَّة مصطَنَعة .

ان الجامعة جَوٌّ اكاديميّ مثاليّ، يمارِس فيه الطالب الحياةَ الموضوعيّة المنظّمة المُضَبَّطة بحرّية راي، وحرية تصرّف في حدود الموضوعية والنظام والانضباط،وعلى نحو يُستَهدف ان ينمي الطالب

نُنَمّيه بناءً متكاملاً، تَبرُز فيه شخصيّته، ونَتلمّس بـه مواهبه الكامنة، ويغدو بـه مواطنا صالحا، ايجابيًّا غير سلبيّ، قابـلا للتفاعل مع مَن حوله وممارسة القيادة والريـادة ، على خلفيّةٍ من المميزات والقِيَـم التي تسود في المجتمع الـذي سيعيش الطالب فيـه .

في ضوء هـذه الأهداف نُسترجع للذاكرة واقـعَ الكلّيات العلمية المتوافرة، او التي يُمكـن ان تتوافر على ارضنا، فَتَمْثُل امامنـا ثلاثة انواع من هـذه الكليات :

اولا : كُلّيات اجنبيةُ اللغـة والطابع، كالكليات الانكليزية والامريكية التـي نعرفها ؛ لغـةُ التعليم والمعاملات والحديث فيها غـيرُ العربية ، حتى يندر أن تجـد فيها اثنين يتكلّمان بالعربيـة .

يَدْخُلُها الطالب العربـيّ فيصدمه فيها امران : لغـةً لا يُتقن فهمها ولا التحدّث بهـا ، وبيئةٌ لا يألفها . فاذا هـو تكيَّفَ مع البيئة وعَجّل في اتقان اللغـة، سارت معه الريح رخاءً، ومضت امـوره بأمان في جَـوٍّ اكاديمي مثاليّ خصب . امـا اذا هو تَعثَّر في هذا او ذاك، فقد ينقطع بـه الحبلُ في وَسَط الطريق، وقـد يُبْلغ نهاية الشوط خائرَ القـوى مُقَطّع الأنفاس .

ونُظلم هـذه الكلّيات اذا لم نَعتَرف بانهـا تُحَقّقُ لابنائنا معظم الأهداف التـي استرجعناها فيما سبـق .

ولكنّنا نظلم انفسنـا اذا لم نعترف ايضا بأنها تُصْدُر عن قِيَـمٍ واخلاقياتٍ لا تنبعث مـن بيئتنا وجذورنا التاريخيـة، وأنّها تُعِدُّ الطالب لمجتمـعٍ غير المجتمع الذي سيعيش فيـه .

لقد خَرَّجت لنـا هذه الكلّيات نفرا من خـيرة ابنائنا وقادة الفكر فيما بيننـا ؛ ولكنّها اجنبية ، فهي لغيرنـا : ادارتُها ليست بيدنا، وسياسَتُها ليسـت مِن صُنعنا، وان من حقّنـا ، كسائر شعوب الارض ، أن يكون لنـا جامعاتُنا التي تُنشأ بمالنـا، ويديرها رجالنا، ويملؤها ابناؤنا، وتُرْسَـم سياستها في ضوء حاجاتنـا وخططنا وتطلّعاتنـا .

انطلاقا من هذه الحاجة ظَهَر بيننا النوعُ الثاني من الكلّيات،وهي :

ثانيا : كلّياتٌ عربيةُ الوجه واليــد واللسان :

قــد يدور في خَلَدنا انَّ هذه الكلّيات تُحَقّق كلَّ مــا تُحققه الكلّيات الأُجنبية وتزيد على ذلــك ، اولاً لأنّ الطالب العربــي اكثرُ استيعابا للمعرفة بلغتــه،ومن ثَمّ فهو اعمق فَهمًا وأولــى بالابداع،وثانيًا لأنه لــن يُضيع وقتًا وجهدا في اتقان لغــةٍ جديدة؛وثالثا لأنّ الكلية تُعِدُّه لمجتمعنا العربــي،وتُنَشِّئه على خَلفيّة مــن قِيَمنا واخلاقنا وبيئتنــا وتراثنــا .

ولكن الواقعَ غــيرُ ما نتوقّع ، لا في الكلّيات العلميــة ولا في الكلّيات الانسـانية او غيرهــا من الكليات . ذلك ان العلــم ينمو في هذا العصر على نحــوٍ يوصَف بالتدفّق او التفجُّر ؛ ومع نمــوّ العلم وتَدفُّقه يمضي تطــوُّرٌ مناهجه بسرعةٍ فائقة،حتــى ايندر ان يعيش كتابٌ علمــي صالحًا دون حاجة الى تعديل ، اكثــر من خمس سنوات . وهو ينمو مــادةً ومناهجَ على ايــدٍ غير عربيّة،وتُعبِّر من الجديد فيه والتجديد ألسِنَةٌ غيرُ عربية ، في دوريّات كثيرة اجنبية .

فالكلّيات العلميــة التي جُعِلَت العربيَّةُ لغــةُ التداول والتعليم، حَجَبَتْ نفسها عــن منابع العلم،ولذا ما لبثت ان وُقِفَــت بمعزل عن تيّار التطوّر،سواء في المــادة العلميّة والتعليميــة ، أم في اساليب عَرضها ، بــل في اجهزة البحث والتدريس . انّ جُلَّ ما تدرسه هذه الكليات إنمــا هو اجترار وتَكــرار .

هــذا واقعٌ كُلُّ مَن يُدرك التطوّر العلمــيّ المعاصر لا يستطيع إنكاره ؛ ولقد قــال قائلون جَدَلاً إنَّ القِلّــة القليلة من خريجي هذه الكليات هي وحدهــا المؤهّلة للاستزادة من العلــم،وهي وحدها التي ستحتاج عندمــا تستزيد الى اتقان لغــة اجنبية ، وعندها نَدْفَع بها الــى موطن هذه اللغة . وهــذا قولٌ يَنمّ على سطحية وسذاجة ؛ فالعلــم الحديث ليس حُليَةً يَتَحلّى بهــا من يقدر

او من يشاء،ولكنـــه حياةٌ وطريقةُ حياة،تُلْمَسـهـــا في البيت والمدرسة والمكتب والشارع وكـــل مكان، وينبغي ان تُجِدهـــا لدى المعلم والطالب على السـواء . حتى الكليـــات الانسانية، التي مادتهـــا عربيّة في كل شيء،قـــد تَحَجَّرت لانها افتقرت الـــى المنهجية التي نلمَسُها واضحة في الكتـــب الأجنبية المتقدمة ، والتـــي بدونها قَلَّما يكتمل بحـــث او تكتمل دراســـة .

وهنـــا امران يَتَبَرَّم بهما جُـــلُّ الحادبين على العربيّة،الداعين الى استعمالها في كـــلّ مراحل التعليم : احدهما الحديـــث عن هذا التدفّق السريع في المـــادة العلمية واساليبها،وثانيهما هـــذه المنهجية التي ازعم اننـــا نفتقدها في الكتب العربية ؛ فقـــد يَحْسُن الاَّ نُمُرّ بهما سراعـــا دون مزيد مـــن التوضيح .

امّـــا عن تزايد المعرفة،فيكفي أن نشـــير الى ان مؤسســـة اليونسكو نشرت قبـــل حوالي عشر سنوات احصائيـــةً تشير الى أنّ مطابع العالـــم تُخْرِج في كلّ اربعين دقيقةً مِن الكـــلام المطبوع ما لو جُمِع في كتاب واحـــد لبلغ هذا الكتاب اربعـــةً وعشرين مجلّدا ، كلٌّ منهـــا بحجم المجلَّد الواحد في الموسوعـــة البريطانية المعروفة ؛ وانّ مـــا تُصدِرُه هذه المطابع في اليـــوم الواحد ينطوي على اكثر من خمســـين مصطلحا علميًّا جديدا،لم يكن لـــه قبل يـــوم واحـــد وجـــود .

ولعلمي ان النـــاس يَنْسَون، ادعو القارىء الـــى أن يتذكّر كيف كانت وسائـــلُ المواصلات، مثلا، قبل ثلاثين عامـــا،وكيف هي اليوم . إنَّ الذي مَكَّن لهـــذه الطفرة الواسعة انما هـــو فيضٌ من المنجَزات العلميـــة والتكنولوجية،نَقَلَت العالم مـــن عصر الكهرباء الى عصر الطاقـــة النووية والحاسبات الالكترونية وسباق الفضاء .

وهـــذه المنجَزات لم تُحَقِّقْها عقـــول عربية،ولم تُفَصِّلْها لنـــا كتب عربية ، وهي المـــادة العلمية التي تُسَيِّر حيـــاة العصر وتزحم مناهج الدراسة،وبتطوُّرِهـــا تَتَغَيَّر الحياة،وتتبدَّل المناهـــج.ونحن لا

نملك حيالها الا ان نقف تلاميذ مستَقْبلين؛ هذا اذا اتيح لنا ان نفتح النوافذ لاستقبالها ، فان لم نفعل فذلك هو التقوقع الذي لا يلبث ان ينجلي عن تَخَلُّفٍ مَن فاتَه القطار .

هذه حقائق ، لا مبالغة فيها ولا سبيل الى تجاهلها او انكارها ؛ وإنّ من الخير ان نَضَعها نُصْبَ أعيُننا اذا كنّا نتطلّع الى تخطيطٍ مُحكَم فعّال .

سيقول قائل : إن دخول العربية من الباب لا يعني هَرَبَ الانكليزية،مثلاً، من الشبّاك . صحيحٌ انه لا يعني ذلك ، فلا لزوم لان تَهْرُب اللغة الأجنبية لأنها لم توجد اصلا ، الا اذا حسبنا أن الفيزيائي الذي يقضي عمره يُدَرِّس الفيزياء في كتب عربيّة يَسْهُل عليه فَهْمُها في مراجع اجنبية . كَلّا ، حتى لو كان يتقن اللغة الأجنبية قراءة وحديثا . ليس صحيحا عندنا ان العِلْم ليس له لغة؛وإن خبرتنا في الجامعة الاردنية لدليل ماثل على ذلك .

امـا المنهجية التي اشرتُ اليها فهي أسمٌ آخر للطريقة العلمية في البحث والاسلوب العلمي في عرض نتائج البحث .

المنهجية اخلاق ؛ انها موضوعية تَتوخّى البحث عن الحقّ وحده، وتَبحث عنه بلا هوى ولا نزق ولا انفعال،ثم تَعْرِض الحقّ،ولا شيء غيره ، بلا تَكلُّف ولا رياء ، ولا بهرجة ولا تلوين ، وباسلوب يعطي الكلمة حجمها الطبيعيّ،فلا يصف بالعَظَمَة الاّ من كان له منها نصيب ، ولا يُعَدُّ عظيما جدًّا الاّ مَن كان نصيبه منها وافرا ؛ المنهجية تعطي كلَّ ذي حقّ حقّه؛فاذا عَرَض امرؤ نتيجة بحثه،ذَكَر من ساروا في الدرب قَبْلَه،واين وَصَلوا،وماذا حقّقوا ، ثم ماذا كان دوره هو،واي جديد حقّق ؛ والمنهجية امانة ، امانة تجاه الحقيقة،وتجاه القارىء والتاريخ .

ليس في المنهجية نفـــاق ولا اسلوب خطابي ولا ،بالغـــة ولا بهرجة كـــلام غير ذي مضمون ، وليس فيها تلويـــن للحقّ ولا تحريف لـــه ولا افتراء عليه . ومـــا احوجنا الى هذا كلّه في ما نقرأ ومـــا نكتـــب .

ولـــم يَسْبق الغربُ الـــى المنهجية : لقد بدات بالاســـلام في عصوره الأولى عندما كـــان رواةُ الحديث يَشدّون الرحـــال، ويَقطعون آلاف الفراسخ من اجـــل التأكّد من نَصٍّ مـــا نُسِبَ لراويه مـــا . ولكنَّ المنهجية ضاعت في العصور الاســـلامية المتاخرة ، ولقيها الغرب في اواخـــر القرن الماضي بعد معانـــاة طويلة شهد فيها كثيرا مـــن الافتراء وكثيرًا من الادعاء . وهـــا نحن اليوم نَجِدُها في البحوث العلميّـــة الغربية،وفي الكتب العلمية الاوروبيـــة، وكثيرا مـــا نَفتقدها في البحوث والدراسات العربيـــة . لقد جَمَعَ بيرسون في فهرســـه الاول كلّ ما نُشِر في الدوريـــات من بحوث ودراسات حول الفكـــر الاسلامي،من مُطّلع هذا القـــرن الى سنة ١٩٥٥ (المجلـــد الاول) زهاء ٢٦ الـــف بحث،ليس بينها بالعربية بحث واحـــد تتوافر فيه عناصر المنهجيـــة .

خوفًا من التقوقع،وحُبًّـــا بالمنهجية،اختارت بعض الجامعـــات العربية نوعا ثالثـــا من الكليات العلمية،وهـــي :

ثالثا : كليات عربيـــة انكليزية :

لغـــة الحياة والمعاملات في هذه الكلّيات هـــي العربية ، ولكنَّ لغـــة المحاضرات والدرس والامتحان هـــي الانكليزية : فالكُتُب المقرّرة والمراجع انكليزية،وعلى هـــذا فالباب مفتوح على مصراعيه لأحدث المناهج ، ولا خـــوف عندنا من تقوقع أو تَحَجُّـــر .

بعضُ الناس يَصعُب عليهـــم ان يَروا الواقع ، وبعضُهـــم يَصعب عليهم ان يَعترفـــوا بما يرون،وهؤلاء جميعا قـــد يُعْتِبون علي اذا قلتُ إنَّ الطالب المتوسّط عندنا يفقد لغتـــه ولا يتقن الانكليزية ،

بالضبط كالغراب الذي قلّد مشية غيره . اننا لم نضعه في جو يتعلّم فيه الانكليزية ، لا حديثا ولا كتابة ، وانما طالبناه ان يَفهم ما يقرأ وما يسمع . اما ما يقرأ فتلك مادة الكتب المقررة يفاجأ بها الطالب منذ اللحظة الاولى، فتحدث لديه رعشة وفي نفسه عقدة ، وقلّما تزول تلك الرعشة، وقلّما تُحَلُّ تلك العقدة ، فلا ينبغي أن نحسب انه يَفهم ما يُقرأ فهمًا تامًّا ، ولكنّها صورٌ لذلك المقروء تُرتسم في مخيّلته، ومعها تصوراتٌ غائمة قلقة لا تلبث أن تنمحي، فيغدو وكانه لم يقرأ شيئا .

وأمّا ما يسمع الطالب في المحاضرات فقلّما يكون انكليزيًّا ، وانما هو خليط من انكليزية سقيمة وعربية عامية، ومع ذلك رُبّما كان هذا الذي يسمعه هو وحده الذي يفيد منه الطالب في جامعته اذا هو أحسن الاستماع، او اذا احسن المعلم الاداء ؛ لأنَّ طُلّابنا قَلَّما يُرجعون الى المراجع لأنهم لا يفهمونها ، وقَلّما يُحسنون استعمال كتبهم المقرّرة لانهم لم يُهَيّأوا لها ؛ وهم قَلّما يناقشون في المادة العلمية لانهم لا يحسنون الحديث بالانكليزية ، فما هي النتيجة ؟ يَنْضَمّون الى تلك الاكثرية الصامتة السلبية، التي تُجهِد نفسها في تحصيل بعض الفهم تحصيلا مؤقتا من اجل الامتحان، وينتهي بانتهائه .

جاءتني قبيل الامتحان طالبة في السنة الاولى في حالة هستيرية تقول : كُلُّ مسائل PERCENTAGE هي طلاسم بالنسبة الي، فَهلّا افهمتني عمَّ تبحث ؟ قلت : الم تدرسي النسبة المئوية في الصف التوجيهي ؟ قالت بلى ؛ قلت ذلك هو ما تبحث فيه ؟

— صحيح ؟

— نعم

— اذن "PERCENT" معناها "في المائة" ؟

— بالضبط

— ما اغباني !

وفي الامتحان رايت طالبا مضطربا يريد ان يستوضح معنى كلمة " Sphere ". وبعد الامتحان جاء الطالب يجادلني مؤكدا ان معلمه فسر الكلمة بمعنى "الجَوّ"، فلما اكّدتُ له ان الجَوّ يقابلها بالانكليزية كلمة " Atmosphere "، شعرت بالطالب كأنّ شبكة معقّدة قد انحلّت امام بصيرته .

سيقول قائل : هذا الذي تصفه حالاتٌ فردية شاذة، تحدث في مرحلة مبكّرة ولا تحدث فيما بعد ذلك. ولكنني اتمنّى لو ان احد المهتمّين بالامر كلّف مجموعة من الطلاّب العلميين، في نهاية المرحلة او بعد التخرج، ان يكتبوا له اسطراً قليلة ، بالانكليزية او العربية، في موضوعٍ ما يتعلّق بتخصّصهم ؛ عندها سيجد عجبًا . اسي مع طالب مَنَحْناه الماجستير في الرياضيّات قصةٌ عجيبة ؛ هذا الطالب لا اذكر اسمه ولكنّي لا انسى قصتي معه ؛ علّمْتُه في كلّ سنة من سنوات دراسته للبكالوريوس، ولا اذكر انه في مرّة واحدة ناقَشَ او وَقَفَ لالقاءِ سؤالٍ او اقتراحِ حلّ . كان دائما مع الصامتين الذين يحسنون الاستماع ، فاذا جاء الامتحان يُحلّق مع المتفوقين .

ومُنِح الطالب البكالوريوس بدرجة "جيّد جدًّا"، وتقدم الماجستير، وكان من نصيبي ان اعطيه مساقا من هذا المستوى . وكان من واجباته في هذا المساق ان يُعِدَّ تقريرا مكتوبا، وان يَشْرح مادته في الصفّ كيما نناقشه . وقد اكّدْتُ على الطلاب ان يُعِدّ كلٌّ منهم تقريره بالعربية، كيما يجري النقاش بالعربية ؛ هذا بالرغم من ان المراجع كلّها بالانكليزية . لقد اردتُ ذلك لأحولَ بين الطلاب وبين النقل الحرفي من المراجع ؛ لقد اردتُ ان يكون لهم دور اكثر من مجرّد التلخيص . ولقد قام الطلاّب بهذه المحاولة، الاّ ان تقاريرهم كانت كمحاضراتِ أساتذتهم، خليطا عجيبا من العربية والانكليزية ، الا هذا الطالب؛ فَقَبْلَ الموعد المحدّد لمناقشة تقريره، جاءني يرجو ان يُقدّم تقريره بالانكليزية

لانه لا يستطيع نقلـــه الى العربية . وحين اخـذ الطالب يقرأ تقريره،مضى حوالي ربـــع ساعة حتى تاكّد لديَّ انـــه يتكلم حقًا بالانكليزية،كان تقريره علـــى النحو الذي اُلِفناه من طلابنـــا : فقرات مقتبسة من المرجـــع أو المراجع،ولكنَّ الفـــاظ الطالب كانت عجيبة ، لا تَمُتُّ الى ايـــة لغة ؛ حتى تلك الالفاظ التي تتكرّر في كـــلّ محاضرة في موضوع تَخَصُّصِه ؛ لقـــد سمعها اكثر من مائـــة مرة من عدد من المحاضرين ، ولكنْ لـــم يتقن لفظها،فلَفَظَها بطريقـــة مضحكة تبعث في النفس السخريـــة ؛ والتفسير واضح : لقد كـــان الطالب يَحضر المحاضرات ويصغـــي ، ولكنَّ فكره كان مشغـــولا،كان يُعَوِّل على ان يحفظ صُوَر المـــادّة التي يجدها في الكتاب،فيعيد رسمـــها على نحوٍ ما في الامتحـــان ؛ ولو كان أعمق من ذلك فهمًا،لمـــا عجز من نقـــل المعاني الى لغتـــه .

والنتيجةُ واضحة،أنّنـــا لم نُخَرِّج فيه طالبـــا يستطيع ان يكون مواطنا صالحا،يفيـــد مجتمعه بعلمه وتَخَصُّصِه ، لا بالعربيـــة ولا بالانكليزية ولا بخليـــط من اللغتين ، ولا خرّيجًا يُمْكِـــن في ايّ مجتمع ان يُعْطيَ عـــن جامعته فكرة طيبة . ومـــا اكثر الدلائل على ان القلّة من خرّيجينا هـــم احسن حالا من هـــذا الطالب .

إِنـــي أُقَدِّرُ لزملائي في الكليات العلميّـــة جهودهم،ولا يدور في خلدي لحظةً انْ أَنْتَقِص مـــن هذه الجهود وهذا الجهـــاد ؛ ولكنّ النقد الذاتيّ دليلُ عافيـــة،والاعتراف بالواقع علامةُ قـــوّة،والتطلّع الـــى الأُحسن والعمل مـــن اجله بشيرُ صحة.وانّ من القـــوّة والصحة والعافية ان نراجـــع مواقفنا،ونتبيَّن مواقـــع اقدامنا .

مـــا العمـــل ؟

تُقَصِّر الكلّيات العربيـــة والانكليزية عن تادية رسالتهـــا كما ينبغي، لانها لا تُهيّىء الطالب للفهـــم والتفاعل مع العلم الـــذي يتعلّمه،بحيث يصير هذا العلم جُزءًا مـــن شخصيّته وكيانه وحياتـــه ؛ فهي كفهما يسبقني

الطالب بشخصيَّتين : شخصية عربيـــة حياتها ومعاملاتها بالعربيـــة ، ولكنْ لا يتعلم بهذه اللغــة، ومن ثَمَّ فعِلْمُه ليس عامـــلا على تهذيب لغـــة حياته ومعاملاته ؛ وشخصيّةٍ محــيَّرةٍ تُحاوِل ان تتعلّـــم بالانجليزية وهي لا تفهَمها، وتحاول ان تُعبِّـــر عن علمها بهذه اللغة فتتَعَثَّر . انهـــا ازدواجية ذات وجهين : وجــهٍ ساذج لا يوجَدُ ما يَصْقُلُــه، ووجهٍ متخاذلٍ لا يَجِد ما يبعث فيه نفحةً من ثقـــة او قبسا من قـــوّة .

وتُقَصِّرُ الكلّياتُ العربيـــة المحضة عن تأدية رسالتهـــا كما ينبغي، لانها بمعزل عن ينابيع العلـــم . كان ينبغي ان يرافِقَها جُهــدٌ دائب لتعريب العلم ؛ اي تكوين اجهـــزة تَعْمَل باستمرار لنقل الفكـــر العلمي الى العربية ، كُتُبـــاً ومراجع ودوريات. وهـــذا يَقتضي بإقامة مؤسســـات للترجمة والتعريب، تقـــوم بجانب المؤسسات الاكاديميـــة التي تُعْنَى بتخريج المتخصّصين، ســـواء في العلم او في التكنولوجيـــا ، حتّى يستطيع الطالـــب والعالم على الســـواء ان يصلا الى ينابيع المعرفة بلغتهـــم انـــى شـــاءوا .

ولكنَّ اقامـــة مؤسسات الترجمة التي تُمِدُّنا بمـــا نحتاج اليه من كتب ومراجع ودوريـــات مترجمة ومعرّبة، مشروعٌ يقتضـــي عملا دائباً غير منقطع، لـــن يؤتي اُكُله على نحوٍ مُرضٍ في اقَـــلَّ من نصف قرن . فهل ننتظر خمسين عامـــا حتى تتكاثر لدينا الكتب المترجمـــة في شتى فروع العلم، ثـــم نبدا بتأدية رسالتنا ؟ لا ، فهنالك بالتاكيد حَـــلٌّ وسط يُغني قبل تعريب العلـــم، ويمهّد لتعريبـــه .

يقتضي هـــذا الحل الوسط ان يجري التعليـــم في الكلّيات العلمية على نحـــو كالآتي :

١ ـــ في السنة الأولـــى الاكاديمية يتلقّى الطالب علومـــه الاساسية بالعربية وباستعمال كتـــب مترجمة ، او غير مترجمـــة ، ويأخذ في كلّ فصل دراســـي مساقا في اللغة الانكليزية ، يُعَرِّفُـــه بالمصطلحات العلمية، ويـــزيده في هذه اللغة قـــوّة .

٢ — في السنة الثانية يُبدأ تخصُّص الطالب، وفيها يتلقّى علومه بالعربيّة، الا مساقاً واحداً في كل فصل يتعلمه بالانكليزية، من موضوعات تَخَصُّصه .

٣ — في السنتين التاليتين يُجري تعليمُ الطالب بالعربية، مع التأكيد على استعمال مُراجعِ اجنبيــة ؛ على ان ياخذ في كلّ فصل مساقاً واحداً على الأقلّ من موضوعات تخصُّصه بالانكليزية . ويُنَظَّم استعمال الطالب للمراجع الأُجنبية بحيث يغدو الرجوع اليها من مستلزمات تَخَرُّجه .

اذا جرى في الوقت نفسه ترجمةُ الكتب العلمية بنشاط ، أمكن تحقيق الهدف المنشود في وقت غير طويل .

اننا نعتقد انَّ مِثلَ هذا الحلّ الوسط اكثرُ فائدة للطالب العربي مما تنتجه الكلّيات العربية المحضة، والكليات العربية الانكليزية ؛ وهو بالتاكيد اقلُّ خَطَرا . انه يَضْمَن تقويةَ الطالب باللغة الانكليزية ، ثم هو نَهْجٌ مرنٌ قابل للتعديل. ولعلَّ ما يلزمنا في هذه المرحلة من حياتنا انْ نُقَوّيَ الطالبَ في لغتين، لا واحدة، بالاضافة الى اللغة الام .

الزاويــة اللغويـة :

أمــا وقد بان من الزاوية التربوية ايّ نَهْج ينبغي ان نسلك، فذلك هو القول الفصل .

ولكنَّ هنالك من يتساءلون : أتستطيعُ العربيَّةُ ان تَستَوعِب لغة العلم والتكنولوجيا ؟

هل اللغةُ تُخْلِق الفكر ام الفكرُ يُخْلِق اللغة ؟

وهنالك من يُجيبون، فيتحدّثون عن مرونة العربية واشتقاقيّتها ، وعن تجربتها السابقة. وفي طيّات هذا الحديث وذاك تَرِدُ اقوالٌ هي مثارُ جدل ونُقَطُ حوار . وهذه كلُّها في تقديري معاركُ جانبيّة لا تُقَرّر

ولا تنفع ، فلكلّ لغـــة خصائصُها وعبقريّتها ؛ ونحن نعرف مـــن خصائص الأمة العربية وطواعيّتهـــا للفكرة الدقيقة ما قـــد يَتّسع فيه مجال الحديث، ونخرج بـــه عما نستهدفه من هـــذه الكلمات .

ولكنَّ الخبرة الماثلـــة امامنا تشير الى انَّ لغـــاتٍ نجمت من لا شيء، وأُريدَ لها ان تنشـــا وليس لها من الخصائص شيء ؛ ثـــم هي بإرادة اهلها استوعَبَت لغـــة العلم والتكنولوجيا ، لـــم تَضِق بها ولم تُخْنُقها .

ان مئاتِ الأقطـــار في الشرق والغرب تُعَلِّـــمُ بلُغاتها، وتُسْهِم في خدمة العلم على قـــدر طاقتها، وتُحرِز انجازات ؛ واكثرُ هـــذه الاقطار لم تكن لغاتها ولا طاقاتهـــا حتى وقت قريب ذاتَ وزن فـــي المقاييس العالمية .

ومن التساؤلات التي تثـــار : هل نترجم ام نُعَـــرِّب ؟

قـــد لا يكون هنالك قاعدة ذهبية عامّة اولـــى من قاعدة وضعها المجمع اللغـــوي في القاهرة، اذ قال : الاصطلاح العالمي نُعَرِّبُـــه ، اما غيرُ العالمـــي فنبحث له عن لفـــظ عربي .

وقد اعتبروا الاصطلاح عالميـــًا اذا كان يُسْتَعْمَل فـــي الانكليزية والفرنسيـــة والألمانيـــة .

على ان الاستعمال هـــو وحده الحَكَم في هذه الامور، فقـــد يشيع بالاستعمال لفـــظٌ اجنبيّ، ويَسْقُط لفـــظٌ عربيّ ؛ وذلك كله حسب ذوق الناس واستحسانهم اللفـــظ او استجاباتهم لـــه .

يبقى امر لا بـــد من ذكره لمـــن يتساءلون : هل تَتَّسع العربيةُ لغـــةً للعلم ، وامام مـــن يجيبون تغزُّلاً بخصائصهـــا .

تُقَـــدَّرُ الكلمات المختلفة التي استعملهـــا شكسبير في مسرحياته بنحو ١٤ الـــف كلمة ؛ وعلى هذا نستطيع أن نَفْتَرِض ان تلك هـــي سَعة اللغة الانكليزية في ايـــام شكسبير ، عندما كانت خلـــوًا من الالفاظ العلمية، لانَّ لغـــةَ العلم في البلاد الاوروبية كانت مـــا تزال هي اللاتينية .

امـــا الآن فقد أُحصِيَتْ المصطلحــاتُ الانكليزية التي تُستعمل في حقل الطــبّ العام وحده،دون فــروع التخصص،فبلغت ٧٤ الفــا .

ماذا يعني ذلــك ؟ اذ نحسب أن اللغة الانكليزية قــد اتسعت حتى بلغت المصطلحاتُ العلمية فيهـــا مئات الآلاف،تستَرعي انتباهَنــا احصائيةٌ اخرى تشير الى انَّ معظم هــذه المصطلحات هي نفسها فــي الفرنسية والالمانيــة . إنّ لغات البلاد المتقدّمة قــد تفتّحت بعضُها على بعض، وتعاونت معـــا في استيعاب الأُفكار العلميـــة .

ان العلم ينمــو باسرع ممّا تنمو اللغة ، بــل باسرع من خيال الشعراء ؛ وإنَّ كــلّ لغة لتضيق عن استيعاب العلــم او مجاراته . ولهذا تلهثُ اللغاتُ وراء العلــم،ويَضيقُ العلماء بلُهاثِها فَيلجأون الــى الرمزيـــة يعبّرون بهـــا عن افكارهم .

امـــا رجالُ اللغة فياخذُ بعضُهم مِــن بعض دون تَحَرُّج،وهــم يَعتَزّون بمـــا ياخذون ويَعُدّونه إثراء لِلُغتهــم .

واني اتمنّى لــو نُنْسِج نحن على هــذا المنوال،فناخذ عن اللغات دون تَحَرُّج الفاظـــا وطُرُقَ تعبير،ونَعُدّ ذلك إثــراء للعربية نعتزّ بــه ؛ وذلك كيما نواكب التقــدّم العلميّ،ونُساير الركب،ونعترف عمليّــا وواقعيًا بأن اللغة كيـــان متطور .

هــذا ما صَنَعَه اجدادُنا عندما قاموا بِنَقْل الفكــر العالميّ الى العربية؛ومـــاذا يضيرنا ان تاخذ العربيَّةُ من الــدم العالمي الحديث كما اخذت في المـــاضي من الدماء الفارسيّـــة والهندية والإغريقية ؟

الزاويـــة القوميّة الوطنية :

اذا شئنا ان نتناول الموضـــوع من كلّ جوانبه ، فلا بُـــدّ من النظر فيه من الزاوية القوميّـــة والوطنية . وهنا يَتَّســـع مجال الحديث ؛ فحاملو لـــواء القوميّة والوطنية يقولون إن لغتنـــا هي هويّتنا،وهي مرآة شخصيّتنـــا العريقة المميَّزة ، ثـــم ان الاسلام والعربية هما اللذان يحفظان للأمـــة وحدتها،رغم ظواهر التفــرق والتشرذم التي تنخر

لاسباب سياسية . وعلى هــذا فهُم يرون أن تعريـــب التعليم واجب قومي وطني، بـــه نحافظ على هُويّتنا وشخصّيتنا، وبـــه نقوّي روابط وحدتنـــــا .

ولكنَّ من النـــاس مَن يجادلون، فيُشيرون الى بـــلاد متفرّقة رغم انها تتكلم لغـــة واحدة، ويشيرون الى بـــلاد مُتَّحِدَة رغم ان فيهـــــا لغتيـــن رسميتـــين .

وفي تقديري ان الخوض في هذيـــن الرايين، وتفاصيل مـــا لهما وما عليهما، يُخرج بنـــا عن موضوع التعريـــب .

وفي يقيني انَّه لـــو وقَف كلُّ اصحاب الراي ضـــدَّ العمل من اجل وحدتنا وتوحيدنا، لوجـــب ألاَّ يعوق ذلك العمل من اجـــل الوحدة، لان بهـــا بقاءنا وتكاملنـــا وقوتنا .

ولكنَّ اذلـــك حديثا آخـــر .